Pre-ethics According in Taoism Philosophy

Dr. Ali Safe*

(Received 31 / 3 / 2019. Accepted 17 / 7 / 2019)

□ ABSTRACT □

This research is based on the basic idea Taoist philosophy pioneered by the wise Chinese scholar, lao Tsu,- presented amoral theory that is unlike any other ethical theories and Philosophy is a concept of non-action, i.e, spontaneous and un-intentional action un-intentionality and spontaneousity are the foundation of any human action, which is why lao tsu considers it precedential to morality because morality is a deliberate, conscious, purposive act, it is an artificial act lao tsu invitation precedes this act.

Therefore, the non-action is the main character of the tao itself (the absolute tao), which grants mankind and the universe age distinction, so it was a must to pave for our basic idea through an important introduction of the tao and Taoism reaching the induction of everything that points to our basis hypothesis: the ethical theory of Taoism is considered pre-moral or superior to what is known of moral frameworks and systems.

Keywords: Tao, Taoism, Te, wu- wei, Pre-ethics

***Assistant Professor, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University, Syrian.**

ما قبل الأخلاق في الفلسفة التاوية

د. علي صافي*

(تاريخ الإيداع 31 / 3 / 2019. قبل للنشر في 17 / 7 / 2019)

□ ملخّص □

يقوم هذا البحث على فكرة أساسية وهي أن الفلسفة التاوية ـ وهي فلسفة صينية قديمة ويعتبر الحكيم الصيني " **لاو تسو**" رائدها الأول . قدمت نظرية أخلاقية مختلفة، عن كل ما تم تقديمه من نظريات وفلسفات أخلاقية. وقوام هذه النظرية، قائم على أساس المفهوم الأساسي في الفلسفة التاوية، وهو مفهوم " **اللافعل** " والمقصود به: الفعل العفوي وغير المقصود، فاللاقصدية والعفوية عندها هي عماد أي فعل إنساني، ويعتبره لاو تسو أمراً سابقاً على الأخلاق؛ لأن الأخلاق قامت وتقوم كفعل إرادي واعي وهادف، إنها فعل مصطنع، ودعوة لاو تسو متقدمة أو سابقة على هذا الفعل.

واللافعل أساساً، هو الميزة الأساسية التي يتمتع بها التاو نفسه (المطلق التاوي) وهو الذي يهب الإنسان والكون هذه الميزة، لذا كان لازماً أن نمهد لفكرتنا الأساسية، بتقديم هام عن التاوية والتاو، وصولاً إلى استقراء كل ما يدلل على فرضيتنا الأساسية وهي: إن النظرية الأخلاقية التاوية تعتبر ما قبل أخلاقية، أو أخلاق متعالية عما هو معروف من الأُطر والنُظم الأخلاقية.

الكلمات المفتاحية: التاو . التاوية . تي . اللافعل . ما قبل الأخلاق .

* **مدرس– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق– سورية**

مقدمة:

تقوم كل النظريات الأخلاقية، على هدف أساسي، وهو وضع معايير وقواعد للسلوك الإنسان، لتعديل السلوك وتهذيبه، والفكرة الأساسية وراء ذلك، أن فلاسفة الأخلاق، يعدون الأخلاق سلوكاً أو فعلاً يمكن تعديله أو تحويره، وفق تعاليم أو نصائح وارشادات، أو قواعد مصطنعة للسلوك.

وخلافاً لذلك، نجد الفلسفة التاوية (Taoism) قدمت تصوراً طبيعياً، وربما بدائي للحياة الإنسانية، فأقامت الحياة الإنسانية، على أساس العفوية الطبيعية أو ما يسميها " **لاو تسو**" ـ رائد التاوية الأول ـ باسم: **اللافعل(وو. وي Wei. Wu)** وليس المقصود باللافعل عدم الفعل بالمطلق، بل المقصود به، الفعل غير المقصود أو العفوي، وإن شئت فقل الغريزي أو الطبيعي.

وإذا كانت كل النظريات الأخلاقية، قائمة على أساس الفعل الواعي والإرادي، الهادف لتحقيق غايات والوصل لنتائج، فإن لاو تسو قد بنى نظريته على أساس اللافعل، أي على أساس الفعل غير الواعي، والذي لا يتجه إلى تحقيق غايات، إنه فعل عفوي تلقائي. يفعل بما ينسجم مع طبيعته، دون أن يرجو مدحاً أو ثواباً، يفعل الواجب ليس لأنه واجب، بل لأن من طبيعته أن يفعله. وهذا ما سيمناه بـ "**ما قبل الأخلاق عند التاوية**" (Pre-ethics) .

والمقصود اثبات مستوى من الأخلاق، متعالي على كل ما عرفته النُظم والفلسفات الأخلاقية. وبناءً عليه فإن سؤالنا الأساسي هنا هو: هل يمكن اعتبار النظرية الأخلاقية التاوية نظرية في الأخلاق المتعالية؟ بمعنى أنها أسمى وأرفع من كل ما قدمته الفلسفات الأخلاقية الأخرى؟.

وقد تضمن البحث: التعريف بالتاوية عموماُ، وبمفهوم التاو وبالذات ميزته الأساسية وهي اللافعل. ثم قدَّمنا استقراءً لكثير . وليس كل . من الأفكار التي تدلل على الموقف الأخلاقي أو ما قبل الأخلاقي عند التاوية، وضمن ذلك للنظريات الأخلاقية المختلفة.

أهمية البحث وأهدافه

أهمية البحث:

هناك الكثير من الدراسات حول نظرية اللافعل عند التاوية، لكن لعل أهمية هذا البحث تكمن في أنه، من أول الدراسات التي تتناول تلك النظرية، من منظور أنها نظرية فيما قبل الأخلاق، أو نظرية في الأخلاق المتعالية. وكذلك تكمن أهميته في اعلائه لفكرة الرقي الأخلاقي، أي في تأسيس هذا البحث لأخلاق متعالية، بعيدة عن النتائج والغايات حتى وإن كانت نبيلة.

أهداف البحث: تكمن أهداف البحث بالإجابة عن الأسئلة التالية:

1. هل يمكن إقامة أخلاق بدون غايات ومصالح؟.
2. هل قدمت التاوية فعلاً نظرية أخلاقية متعالية خلافاً لكل الفلسفات الأخلاقية؟.
4. إلى أي حد تنسجم نظرية ما قبل الأخلاق التاوية مع الفلسفة التاوية.
5. ما هو حجم التأثير الذي مارسته التاوية عموماً، ونظريتها ما قبل الأخلاقية في الفلسفات اللاحقة.
6. إلى أي مستوى يمكن الاستفادة من النظرية التاوية في توجيه السلوك الإنساني وإرشاده أخلاقياً.

طرائق البحث ومواده:

في الفلسفة لا نقتصر على طريقة أو منهج واحد، بل نعتمد على العديد من المناهج أو الأدوات المنهجية: كالتحليل والتركيب، وكذلك على المنهج المقارن لربط ومقارنة بعض الأفكار، بما يماثلها عند الفلاسفة. وكذلك المنهج النقدي حين دعت الضرورة .

أولاً: التاوية و التاو:

التاوية **(الطاوية)** " **Taoism** " هي الفلسفة التي تبناها الحكيم الصيني **لاو تسو**"**Lao .Tseu**". وهو اسم تشريف للسيد " **لي تان** " الذي ولد في دويلة " **تشو**" التابعة لمقاطعة "**هونان**" الجنوبية حالياً.[1] وذلك في العصر الذهبي بالنسبة للفلسفة والحكمة عموماً، وهو القرن السادس قبل الميلاد، ولن نخوض في مسألة الاختلاف حول ظهور لاو تسو، وما هو مؤكد بدرجة قطعية، أن هذا الحكيم كان معاصراً لكونفوشيوس زعيم الثقافة الصينة، ويقال أن كونفوشيوس اجتمع بلاو تسو حينما كان يفارق الحياة، وقد كان عمر كونفوشيوس حينها حوالي (34)عاماً.[2]

وقد شغل لاو تسو وظيفة أميناً للمكتبة العامة في تشو، لكنه بعد أن فقد الأمل بإحداث أي تأثير أو تغيِّر، في إصلاح بلده قرر المغادرة، وقد عمد على اثر ذلك، على كتابة خلاصة أفكاره قبل المغادرة، فكتب خمسة آلاف كلمة شكلت ما سمي بكتاب: " **تاو تي تشينغ** " **(Tao Te Ching)** وهو ما يترجم بـ الطريق إلى الفضيلة، أما فراس السواح فقد سجله باسم:" **إنجيل الحكمة الصينية**".

وقد سمي المذهب الذي تبناه لاو تسو، على اسم الكلمة الأولى في كتابه الشهير وهي التاو، فصارت التاوية أو الطاوية اسم لفلسفته، *على أن التاوية مرت بمرحلتين أساسيتين: الأولى منهما هي مرحلة المؤسسين وتسمى: "**تاو جيا**" وتعني التاوية الفلسفية، والمرحلة الثانية تسمى "**تاو جياو**" وتعني التاوية الدينية.[3]* ذلك أن *التاوية كديانة بدأت بالظهور منذ القرن الأول الميلادي، ويعتبر "**تشانغ لينغ**" أهم رجال التاوية كديانة في القرن الثاني ميلادي، وقد لُقِّب بالمعلم السماوي وبقي هذا اللقب متوارثاً حتى أُلغي على يد الثورة الشيوعية عام 1949م.* [4]

ونحن طبعاً سنتناول التاوية كفلسفة، أي في مرحلة المؤسسين وبالذات المؤَّسس الأول " **لاو تسو**"، التي تعتبر فلسفته أول فلسفة طبيعية أو مادية في الصين،[5] حيث أن الفلسفة التاوية برمتها قائمة على مفهوم " **التاو . Tao** "، والتاو عند التاوية ليس مفهوماً ميتافيزيقاً مفارقاً، بل هو أقرب إلى الأصل المادي السابق على أي مادة، إنه السابق مطلقاً، ولا يمكن لأية تسمية أن تفيه حقه: " **التاو الذي يمكن التحدث عنه، ليس التاو السرمدي، الاسم الذي يمكن إطلاقه، ليس الاسم السرمدي، اللا مسمى هو السابق على السماء والأرض، المسمى هو الآلاف المؤلفة.**"[6]

---

[1] **ـ لاو تسه ، تشوانغ تسه، التاو، ترجمة: هادي العلوي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط1، 1995، ص14**

[2] **ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود ومحمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج4، ص38 .**

[3] **ـ لاو تسه، تشوانغ تسه، التاو، ترجمة: هادي العلوي، ص14**

[4] **ـ عمر عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999، ص 145.**

[5] **ـ أما في الهند فقد شاع انتشار مدارس زهدية بعضها معاصر للتاوية كالبوذية، وبعضها يعود لعصور سابقة على ذلك كمدرسة الكارفاكا التي تنسب للحكيم كارفاكا ، وهي فلسفة مادية خرجت عل تعاليم الفيدا.**

[6] **ـ لاو تسو، التاو تي تشينغ (انجيل الحكمة التاوية في الصين) ترجمة: فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق، 1998، ص35 .**

فهو الذي لا اسم له، لأنه قبل المسميات وأصلها، وهو مبدأ كل ما يوجد، إنه السابق على السماء والأرض، ومنه انبرى كل ما في الوجود، مع أنه غير متمايز، وهو أشبه بالهيولى أو اللامعيَّن عند أنكسيمندرس، يقول لاو تسو: " **أقول أن التاو لا متمايز ومعتم، معتم ولا متمايز، ومع ذلك ففي صميمه صورة، معتم ولا متمايز، ومع ذلك في صميمه جوهر، معتم ولا متمايز، ومع ذلك ففي صميمه ماهية أصيلة.**"[1]

التاو إذاً ذات لا متمايزة، إنه أشبه بالعدم، لكنه عدم خلاَّق مبدع، فلا نستطيع أن نقول: إنه شيء، لكنه أصل كل شيء. فما نراه في العالم من أشياء، يسميه لاو تسو بـ " **العشرة آلف شيء** "، والذي يسميه السواح " **بالآلاف المؤلفة** " تم إيجاده عن اليانج واليين (الذكر والأنثى ـ السماء والأرض) واليانج واليين انبثقا عن التاو: " **التاو أنجب الواحد، الواحد أنجب الثاني، الثاني أنجب الثلاثة، الثلاثة أنجبت الآلاف المؤلفة** "[2] فالتاو أنجب الـ " **تي Te ـ الفضيلة**"[3]، والـ تي أنجبت اليانج واليين، واليانغ واليين أنجبا الآلاف المؤلفة، أي كل ما يوجد في عالم الكثرة.[4]

فالتاو بالنسبة للتاوية هو مبدأ الحركة مع أنه ساكن، أصل الامتلاء مع أنه فارغ، هو أصل كل شيء مع أنه ليس له اسم: " **هناك شيء بلا شكل، موجود قبل السماء والأرض، صامت وفارغ، قائم بنفسه لا يتحول، يتخلل المكان ولا ينفذ، إنه بمثابة الأم لهذا العالم، لا أعرف له اسم فأدعوه التاو، لا أعرف له وصفاً فأقول: العظيم**"[5]

هذا العظيم أو المطلق الذي اعتبره لاو تسو قائم بذاته، *أشبه بجوهر أرسطو، لولا أن تاو لاوتسو يفعل بالمباشرة والملامسة وليس كما محرك أرسطو، الذي لا يتحرك أيضاً، لكنه يفعل بالعشق أو الاشتهاء.*[6] إن التاو أشبه بالجوهر الفرد عند المسلمين، لكن تاو لاوتسو أعظم قيمة وأشرف منزلة. إنه أشبه بالبراهمان عند الهندوس لكنه أكثر قرباً واتصالاً من مخلوقاته. حقاً إن التاو شيء غريب.[7]

إنه شيء محيّر فعلاً، كما وصفه لاو تسو نفسه بأنه مظلم، محيِّر، عسير الوصف. وطالما أن التاو هو الأم، فهو الذي يلد أبناءه، وهو فعلاً كذلك، فعن التاو ولدت الـ تي، وعن الـ تي ولدت السماء والأرض والإنسان، وكل شيء مرجعه إلى مبدأه وأصله: " **أربعة ينتسبون إلى العظمة: الإنسان يقتدي بالأرض، الأرض تقتدي بالسماء، السماء تقتدي بالتاو، والتاو يقتدي بذاته**".[8]

وما يميّز عمل التاو أنه بلا عمل، وهنا يبرز المفهوم الأهم بالفلسفة التاوية، بعد مفهوم التاو وهو مفهوم **اللافعل** " **وو. وي ـ Wu Wei**" وهو أن التاو لا يقوم بعمله كما أي فاعل أو محرك أو إله، لأن فعله عبارة عن حركة عفوية تلقائية؛ لأنه بالحقيقة هو التلقائية والعفوية الموجودة بالعالم " **إن التاو ليس من شيمته الفعل، ومع ذلك فإنه لا يترك شيئاً**

[1] ـ المصدر نفسه، ص56.
[2] ـ المصدر نفسه، ص77. أيضاً: فراس السواح، دين الإنسان، منشورات علاء الدين، دمشق، ص248.
[3] ـ الـ تي هي فضيلة التاو، وهي توازي اللافعل عند التاوية لأن فضيلة التاو هي التلقائية، وهي أسمى ما لدى التاو من فضائل.
[4] ـ فراس السواح، دين الإنسان، ص 247 وما بعدها.
[5] ـ لاو تسو، تاو تي تشينغ، تحقيق: فراس السواح، ص60.
[6] ـ راجع بخصوص ذلك: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، طبعة جديدة، ص181.
[7] ـ راجع: فادي الأطرش، نشأة الفكر في الحضارة الشرقية القديمة، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق ـ فرع بنها ـ 2004 ـ ص117.
[8] ـ لاو تسه، تشوانغ تسه، التاو، ترجمة: هادي العلوي، ص18.

بحاجة إلى تمام"[1] بل لا يتم فعل إلا به لأنه أساس الفعل واللافعل، فبرغم أنه " **لا يجهد نفسه، مع ذلك يصيب هدفه**"[2]

ومع كونه لا يفعل فهو الذي يهب كل شيء وجوده: " **التاو يهبهم الحياة ويرعاهم، ينشئهم ويرزقهم، يربيهم حتى يبلغوا أشدهم، يؤويهم ويطعمهم.**"[3] والمقصود هنا باللافعل ليس الامتناع عن الفعل مطلقاً، بل هو القيام بالفعل بشكل عفوي، ودون قصد. لا يفعل عن نيَّة مبيتة، ولا قصد وهدف محدد أو مسبق. إنه يفعل فقط، لأن من طبيعته أن يفعل، ولأنه كذلك فإن التاو لا غاية له من انجازه لأي عمل، ولأنه كذلك فهو لا يرجو مدحاً أو شكراً، ولا يفرض علينا شروطاً وغرامات جراء خدماته العظيمة لنا: فالتاو " **يعينهم ولا يقتضي عرفاناً، يدبر أموراً ولا يدَّعي سلطاناً** "[4]

لذا قد نعتبر التاو بمثابة إله، لكنه ليس كما أي إله، لأنه أولاً ليس إلهاً مفارقاً،[5] بل يدخل في تركيب كل الموجودات، وذلك لأنه هو الذي يهب الـ تي للعالم والتي تعتبر بمثابة روح العالم، إنها أشبه ما تكون بالأتمان[6] عند البراهمية[7]، وهي أشبه ما تكون بالتاو لأنها أقرب المخلوقات أو الموجودات إليه، فالتاو هو علة العالم لكنه ليس علة مفارقة. إنه " **الطريقة التي يعمل بها الكون، ويسير بمقتضاها، إنه نظام الكون**"[8].

كذلك التاو ليس إلهاً شخصياً؛ لأن الإله الشخصي يفرض علينا شريعة، أو تعاليم معينة، وهي بمثابة شروط إلهية، لدخول العالم الإلهي أو القبول الإلهي. في حين أن التاو يمنحنا كل شيء ولا يدعي سلطاناً، يهبنا كل شيء ولا يتطلب عرفاناً، فالتاو هو التلقائية والعفوية التي تفعل كل ما تفعله دون أن تقصد إليه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التاو يفعل من خلال اللافعل، أو الفعل العفوي التلقائي، وطالما الأمر كذلك، فانه ليس بمقدوره أن يفعل خلافاً لما يفعله، أي خلافاً لعفويته وتلقائيته، لذا فإن التاو هو العفوية واللاقصدية من جهة، ومن جهة أخرى هو الضرورة التي لا بد أن تتحقق في العالم. ونؤكد بأن هذه الضرورة ليست الجبرية القسرية أو القهرية، ذات الطابع اللاهوتي، بل هي الضرورة الطبيعية التي تُعتبر قانوناً عاقلاً وحكيماً، بدون أن يكون هذا العقل رياضياً أو استدلالياً، بل هو عقل تلقائي عفوي وهذا ما يسميه لاو تسو باسم البصيرة. ولا ندري هنا ما هو الفارق بين هذا وبين اللوغس الرواقي، ذاك العقل الطبيعي المنبث في العالم. وكذلك الطبيعة العاقلة عند روسو، وربما الروح المطلق عند هيجل.

هذه العفوية وهذه التلقائية (اللافعل) هي ما يرثه العالم من التاو، ويُشبه لاو تسو هذه الحركة، بحركة الماء وتدفقه على نحو طبيعي.[9] ولذا فإن العالم بقدر ما يسير بموجب هذه التلقائية، بقدر ما يتشبه بأصله ومبدأه، وقد كان الإنسان هو أكثر المخلوقات أو الموجودات قدرة على ذلك، ونحن سنتناول هذه التلقائية، عند الإنسان على مستوى الأخلاق بشكل أساسي.

---

[1] ـ لاو تسو، تاو تي تشينغ، تحقيق: فراس السواح ، ص72.
[2] ـ المصدر نفسه، ص 42.
[3] ـ المصدر نفسه، ص 86.
[4] ـ المعطيات نفسها.
[5] ـ فادي الأطرش، نشأة الفكر في الحضارة الشرقية القديمة، ص18.
[6] ـ هو تجلي البراهمان أو المطلق في العالم، إنه ذات العالم أو روحه، أو هو الحقيقة الذاتية للعالم.
[7] ـ البراهمان هو المطلق عند الهندوس في مرحلة الأبانيشادا، أما البراهمية فهي الهندوسية في مرحلة الأبانيشادا وهي المرحلة التي وصلت فيها الهندوسية إلى القول: بكائن أسمى أو مطلق هو البراهمان. وتطلق البراهمية أيضاً على طبقة رجال الدين لدى الهندوسية.
[8] ـ جوزيف نيدهام، موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، ترجمة: محمد غريب جودة، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، 1995، ص 150- 151.
[9] ـ الأطرش، نشأة الفكر في الحضارة الشرقية القديمة، ص126.

ثانياً: ما قبل الأخلاق التاوية:

في مسح معرفي للموقف الفكري والفلسفي تجاه القضايا الأخلاقية، وبالذات تجاه الموقف الأخلاقي، أو الأساس الذي نحكم من خلاله على أعمالنا بأنها أخلاقية أم لا، نجد أنفسنا أمام ثلاث نظريات[1]. وأولها نظرية اللذَّة، التي تمثلها **القورينيائية** (مدرسة يونانية ـ حسية) التي ترى بأن اللذَّة هي الغاية الوحيدة في الحياة،[2] وكذلك **الأبيقورية** (مدرسة يونانية مادية ذرية) مع فارق هو أن الأبيقورية خفَّفت من غلواء القورينيائية، وإلحاحها على اللذَّات الحسية. فهي وإن أقامت الأخلاق على اللذَّة، لكنها تصوَّرت اللذَّة على نحو أكثر نقاءً، بحيث أنها أولت اللذَّات الروحية والعقلية أهمية أكثر بكثير من لذَّات الجسم.[3] أما حديثاً فيمثل مذهب اللذَّة الفيلسوف توماس هوبز، الذي يرى أن حب حب الذات هي أساس عمل الإنسان، وأن كل أعمالنا محكومة بما يعود علينا بالنفع.[4]

وقد رأى فريق من الفلاسفة، أن طلب السعادة أو اللذَّة، قد يخلق لدى الفرد نوعاً من الأنانية، لذا استبدلوا اللذَّة بالمنفعة، وسميت نظريتهم بنظرية المنفعة، نظراً لربطهم خير الفرد بخير الجماعة. ويأتي على رأس هؤلاء " **بنتام** " و"**ستيورات مل**" الذين ذهبا إلى أن سعي الفرد، إلى تحقيق لذَّات الآخرين، قد يمكنه من الحصول على أكبر قدر ممكن من اللذَّة.[5]

وقد أقروا باللذَّات النفسية والجسمية، واعتبروا أن اللذَّات النفسية أفضل وأسمى، ومن الواجب ألا نبحث عن أكبر لذَّة، بل يجب البحث عن أشرف اللذَّات.[6] وبالتالي هذا من شأنه أن يهذب مساعي الإنسان في طلبه للذَّات، بحيث لا نلهث وراء اللذات التي تكمن وراء الأغراض الدونية أو الرخيصة، مثل لذَّات الأكل والشرب والجنس. وإنما ننشد لذَّات بعينها؛ كأن نطلب اللذَّة الناتجة عن القيام بالوجبات الاجتماعية، أو نطلب اللذَّة الناتجة عن القيام بانجاز ثقافي أو فني.

وفي الطرف المقابل نجد المذهب أو المذاهب الحدسية التي رفضت اعتبار اللذَّة والألم معيار للأخلاق، وقالوا بأننا نتعرف على خيرية الصدق والعدل والشجاعة من دون النظر إلى نتائجها، وإنما نعرف ذلك بالنظر إلى الأعمال ذاتها، ففي داخلنا قوة تجعلنا نميِّز بين الخير والشر، هذه القوة يسميها كانط باسم الإرادة الخيرة، ويسميها لاو تسو باسم البصيرة، ويطلق عليها أحمد أمين اسم اللقانة، أي القوة الحدسية .[7]

ففي حين تقيم مذاهب اللذّة الفردية والعامة، صرحها الأخلاقي على أساس ما ينتج عن العمل من نتائج ـ ولذا تسمى هذه المذاهب بمذاهب النتائج ـ نجد أن المذاهب الحدسيَّة تقيم مثالها الأخلاقي، دون انتظار لنتائج تذكر. فالعمل الأخلاقي يستمد قيمته من ذاته، دون انتظار ما ينتهي إليه من نفع أو لذة عاجلة أم آجلة.

---

[1] ـ نذكر هذه النظريات لكي نعرف مكانة النظرية التاوية ضمن الأفكار والنظريات المطروحة في هذه الصدد.

[2] ــ ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: عبد المنعم مجاهد، وزارة الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984، ص140.

[3] ــ المرجع نفسه، ص 290. كذلك: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1953، ص 44 وما بعدها.

[4] ـ أحمد أمين، كتاب الأخلاق، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931، ص38.

[5] ـ المرجع السابق نفسه، ص59. أيضاً: مصطفى عبده، فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص 59- 60.

[6] ـ أحمد أمين ، كتاب الأخلاق، ص 45- 46.

[7] ـ أحمد أمين، كتاب الأخلاق، 48- 52.

وندرج ضمن المذاهب الحدسية فلسفات عقلية مثل فلسفة سقراط وكانط وأخرى صوفية زهدية مثل البوذية والجينية، وكل متصوفة أديان الوحي وبالذات المسيحية والإسلامية. فالمذاهب العقلية تنشد تحقيق الواجب العقلي أو الأخلاقي، والالتزام به، في حين نجد الصوفية والزهَّاد، ينشدون تحقيق السمو الروحي، أو الاتصال بما هو روحي أو إلهي.

أمام كل ذلك يطالعنا موقف متميَز في تاريخ الفكر والأخلاق، يختلف عن كل ما تم تقديمه من مذاهب وفلسفات أخلاقية. هذا الموقف الذي عبَّر عنه وعلى نحو مبكر من تاريخ الفكر والفلسفة، المفكر والحيكم الصيني: لاو تسو. هذا الموقف من الأخلاق أشبه ما يكون بموقف سابق على الأخلاق أو ما قبل أخلاقي. وليس المقصود هنا حالة متخلفة أو بعيدة عن الأخلاق، بل بالعكس إنه من هذه الناحية يعتبر ما بعد أخلاقي أو أخلاق متعالية، باعتباره موقف ينشد درجة رفيعة من السمو الأخلاقي، أعلى وأرفع من كل ما عرفته البشرية من الأطر والنظريات الأخلاقية.

فالقيمة التي يدعو إليها لاو تسو، يرفض أن يسميها قيمة أخلاقية؛ لأنه يعتبر أن ظهور الأخلاق، كان مؤشراً على مرحلة من مراحل التشويه الذي أصاب الإنسان. والأخلاق المتعالية أو ما قبل الأخلاق، هي أخلاق متعالية؛ لأنها لا تنشد اللذّة الشخصية ولا السعادة الفردية ولا حتى الجماعية، بل هي أخلاق أسمى من أن يكون لها غاية أو هدف تسعى إليه، على المستوى الحسي الشخصي أو الجماعي. وبذلك يتجاوز مذهب لاو تسو في الأخلاق كل مذاهب المنفعة الشخصية والعامة.

كذلك تتجاوز التاوية الأخلاق الحدسية بمستوييها العقلي والزهدي. فالعقلي يرفض أن تتجه الأخلاق نحو غاية، وهذا ما يتفق مع التاوية، لكنهما يختلفان بأن فلسفة الواجب هي فلسفة الإرادة؛ لأن الإنسان يتجه بإرادة ووعي، وبقصدية عاقلة نحو الالتزام بالواجب، في حين يرفض لاو تسو أن يكون في منهجه عنصر الإرادة؛ لأن الإرادة تتضمن الرغبة والعلم أو المعرفة، والرغبة والعلم هما عنصرين معاديين للطريق التاوي كما سنرى، ولذا يبدو الطريق التاوي طريقاً سابقاً على الأخلاق، باعتبار أن الأخلاق لا تخلو من اللذة أو المتعة، ولا تخلو من الإرادة والرغبة والقصد والمعرفة الهادفة. لهذا أطلقنا مصطلح ما قبل الأخلاق على المنهج أو الطريق الذي اختطه لاو تسو على مستوى المجتمع والأخلاق.

ومن هنا كان لازماً أن نبيِّن الفكرتين الأساسيتين للفلسفة التاوية، وهما التاو نفسه ومبدأ **اللافعل(وو- وي)** لأن الطريق الذي على الإنسان أن يسلكه، هو طريق التاو، والتاو نفسه يعني الطريق أو المنهج، ووسيلة الإنسان في السير على هذا المنهج أو التاو، هي الكف عن الفعل أو عدم الفعل، أو اللافعل. اللافعل الذي يعني الفعل العفوي أو التلقائي بمقتضى الطريق الأعظم، طريق الكون أو الطبيعة. واللافعل على مستوى الفكر والعلم، واللافعل على مستوى المجتمع، هو جزء من المنهج التاوي المتكامل. ونحن هنا لن نتكلم إلا على مستوى المجتمع والإنسان، وبالذات ما له علاقة بالأخلاق.

تقدم التاوية إذاً نموذج فريد من الأخلاق وهو ما سميناه بمصطلح **ما قبل الأخلاق**، وهي تجلي **الـ تي** على المستوى الأخلاقي، من خلال المفهوم الجوهري الذي أورثه التاو للموجودات وللإنسان على رأسها، وهو مفهوم **اللافعل**. فالحكيم التاوي يتمثل بالتاو بكل شيء، فما ينطبق على التاو على مستوى أفعاله العفوية ينطبق أيضاً على الإنسان التاوي، وهو ليس أي إنسان بل الإنسان الذي بلغ أقصى درجات الكمال من منظور التاوية.

فالحكيم التاوي أولاً وقبل أي شيء، لا يفعل، أي إنه يكف عن الفعل الواعي المقصود، ومع ذلك فهو ينجز أعماله على أتم وجه: " **فإن الحكيم التاوي يعرف دون أن يتحرك خطوة، يميّز دون حاجة إلى نظر، ينجز دونما حاجة إلى فعل**".[1]

إنه لا يفعل بمعنى أنه لا يقوم بأعماله بغية تحقيق لذة أو سعادة، فالحكيم التاوي ليس كالحكيم القورنيائي ولا الحكيم الأبيقوي غايته القصوى تحقيق لذة حسية أو حتى عقلية، الحكيم التاوي كما التاو ذاته بلا رغبات، إنه أشبه بجلمود خام و" **الجلمود الخام بلا رغبات، إذا استطعت التحرر من الرغبات والبقاء ساكناً، فإن المملكة ستعيش بسلام**".[2]

الحكيم التاوي بلا رغبات لأن الرغبة تعكر صفو النفس، وتبعد الحكيم عن الطريق، طريق السماء: " **الألوان الخمسة تعمي بصر الإنسان، المقامات الموسيقية الخمسة تصم الأذن، الطعوم الخمسة تفسد حاسة تذوقه، السباق والقنص يهيج قلبه، تقدير النفائس وتكديسها يصيبه بالقلق عليها، لذا فإن الحكيم ينكفئ نحو الداخل، ويتجنب إغواء الحواس، ويترك هذا ويأخذ بالآخر**."[3]

الحكيم التاوي لا يفعل كذلك، بمعنى أنه لا يفعل بغية تحقيق السعادة الشخصية، كما هي عند هوبز، ولا السعادة العامة كما هي عند بنتام وجون ستيوارت مل، ليس للحكيم التاوي غاية من فعله، لا شخصية ولا عامة، لماذا؟ لأن التاو ذاته بلا رغبات فالحكيم أيضاً بلا رغبات.

الحكيم التاوي إذاً بلا رغبات، وهنا يلتقي الموقف التاوي مع الاتجاهات الزهدية، سواء البوذية والجينية الهنديتين،[4] أو الكلبية والرواقية اليونانيتين، وصولاً إلى الفلسفة الحديثة التي يمثلها كانط على هذا المستوى خير تمثيل، مروراً بكل النماذج الزهدية والصوفية لدى الديانتين السماويتين المسيحية والإسلام،[5] بل وحتى لدى اليهودية.

لكن رغم هذا التقاطع، يختلف الموقف التاوي حتى عن هذا الاتجاه الزهدي الصوفي، *لأن الزهَّاد والمتصوفة يتطلعون إلى التقرب إلى الله أو الاتصال به مباشرة أو عبر واسطة، أما التاوية فتعمل باعتبارها جزء من الطبيعة التي هي التاو ذاته*،[6] كذلك الزهاد والمتصوفة وإن كانوا يعملون لكبح جماح رغباتهم، وإن كانت مواقفهم ليست متوقفة على ما تؤُول إليه من نتائج، لكنها مع ذلك ترتكز على عنصري المعرفة والإرادة، بل، وعلاوة على ذلك فإنها تتجه لغاية: وهي الاستنارة او الاتصال بالمطلق أو الله .

وإن كانت التاوية تدعو إلى التحرر من اغواء الحواس " **غير أن هذا لا يعني قمع الحواس عن طريق الزهد والتنسك، بل تركها تنشط بتلقائية من خلال اللافعل... التاوي لا يرفض عالم الظاهر باعتباره وهماً [مايا] كما يفعل الهندوسي، بل يرى فيه سبيلاً إلى عالم الباطن**"[7]

واللافعل يعني التلقائية أو الفعل بعيداً عن الرغبات، لأن التصرف " **إرضاءً للرغبات من شأنه أن يجلب الأوضاع التي تقتضي الأخلاق، فإن هذه الاخيرة لا يمكن التخلي عنها إلا بعد التخلي عن الرغبات كمصدر للأفعال. والسبب في أن**

---

[1] ـ السواح، تاو تي تشينغ، مصدر سابق، ص82.
[2] ـ المصدر نفسه، ص72.
[3] ـ المصدر نفس، ص 46.
[4] ـ حيث نكران الأنا الفردية لدى البوذية من خلال فكرة النيرفانا أو السمو الروحي، أو فكرة الزهد حتى الموت عند الجينية.
[5] ـ للتاوية موقف مماثل لموقف الأبيقورية بالابتعاد عن السلطة السياسية، على عكس موقفها من الجنس التي اعتبرته تغذية للحياة وليس أمراً نجساً، وهذا الموقف شبيه بموقف الإسلام الذي لم يعارض هذه المسألة . راجع: كتاب التاو، ترجمة: هادي العلوي، ص 43-44.
[6] ـ هـ . ج كريل، الفكر الصيني من كنفوشيوس إلى ماوتسو ـ تونغ، ترجمة: عبد الحميد سليم، ص150
[7] ـ ، لاو تسو، تاو تي تشينغ، تحقيق: فراس السواح، ص151.

التصرف انطلاقاً من الرغبات يقتضي الشر، هو أن ذلك مناقض للطريق، ذلك أن التاو العظيم على الدوام بلا رغبات"[1] ولذا فإن الحكيم التاوي حسب لاو تسو " **يشتهي أن تكون له شهوة** "[2].

وهنا بالذات تتميَّز المواقف التاوية، عن غيرها من الاتجاهات الزهدية، لأن الحكيم التاوي لا يفعل ما يفعله عن وعي ومعرفة مسبقة بما يفعل، بل هو يفعل لأن من طبيعته أن يفعل، أي يفعل بحكم طبيعته التي تتوافق مع التيار الكوني أو الطبيعي الكلي: ف "**الذي يعرف لا يتكلم، الذي يتكلم لا يعرف، غلق الأبواب، ثلِّم الحد، خفِّف البريق، حل العقد، تماذج مع التراب، هذا ما أدعوه بالتماثل مع التاو.**"[3] وذلك لأن الأبواب المفتوحة لا تأتي على شيء، والسكِّين المسنونة تقطع دون رحمة، والبريق القوي، يحد من البصر، لذا على الحكيم أن يعمل على حل العقد؛ أي عدم التطرف والغلو؛ لكي يستطيع أن يؤدي دوره المنوط به بحكم طبيعته.

والتاوية تعتقد أن الإنسان جزء من الطبيعة أو الكون، وقد كان في سالف الزمان منسجماً مع طبيعته الحيادية كما التاو تماماً: " **طريق السماء حيادي، ولكنه يبقى إلى جانب الشخص الطيب.**"[4] فالإنسان بطبيعته كان خيِّراً، عندما لم يكن يكن يأخذ إلا ما يحتاج إليه، بشكل معتدل ودون تطرف أو غلو. وقد وجدت هذه الفكرة مثيلاً لها عند أفلاطون، بكتابه القوانين، وعند الرواقية أيضاً، بينما قامت في العصر الحديث، فلسفة جان جاك روسو، على أساس خيريَّة الطبيعة الإنسانية، لدرجة أن البعض أطلق على روسو اسم: لاو تسو فرنسا.[5]

وفي الحالة الطبيعة الأولى عند لاو تسو، لم يكن هناك تعاليم أخلاقية ولا فلسفات ولا تشريعات ولا أديان، ولا أطباء أيضاً. لكن مع فساد المجتمع وتحوله شيئاً فشيئاً لمجتمع الرذيلة، ظهرت الحاجة لتعاليم أخلاقية وقانونية ثم دينية: " **لذا فعندما يُنسى التاو تظهر الفضيلة، وعندما تنسى الفضيلة يظهر عمل الخير، وعندما يُنسى عمل الخير تظهر الاستقامة، وعندما تُنسى الاستقامة تظهر الشريعة، الشريعة هي قشرةٌ للإيمان والإخلاص، وبداية الفوضى من هنا، فإن أصحاب العقل الراجح يبقون مع اللباب لا مع القشرة.**"[6]

وقد يسيء البعض الفهم، ويعتقد أن التاوية احتقرت تعاليم الأخلاق والأديان بحد ذاتها، لكن هذا غير صحيح، فنقد التاوية اللاذع لم يكن يتوجه للأخلاق والأديان، بل للحالة المجتمعية الرديئة، التي استدعت ظهور فلاسفة الأخلاق والأنبياء. فعندما يبتعد الناس عن الفضيلة الكاملة، فضلة التاو، تظهر الحاجة إلى التعاليم الأخلاقية، لأن الإنسان التاوي يفعل بمقتضى طبيعته، فعلاً عفوياً يوافق طبيعة التاو الكاملة، بدون تعاليم وبدون قوانين وأديان. فعندما تظهر الحاجة إلى تعاليم الاستقامة المباشرة، الواعية والمقصودة، والتي يتم تداولها في المدارس والجامعات، فهذا مؤشر على ابتعاد الناس عن الفضيلة التامة فضيلة اللافعل، وعندما أمعن الناس في الابتعاد أكثر، ولم تعد تجدي معهم حتى التعاليم الأخلاقية، صار لازماً أن تظهر الأديان، التي تلجأ إلى فرض تعاليمها بالقوة إن لزم الأمر، لأن الناس لم يعودوا يتقبلوا حتى الكلمة الحسنة.

وما يؤكد رأينا بهذا الخصوص، ما أورده لاو تسو في مستهل النص السابق: " **رجل الفضيلة الكاملة لا يشعر بفضيلته، ولذا فإنه رجل فاضل، البعيد عن الفضيلة مشغول بها على الدوام، ولذا فإنه رجل غير فاضل. رجل**

---

[1] **- جون كولر، تاريخ الفلسفة اليونانية، 362.**
[2] **- عمر عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين، ص82.**
[3] **- لاو تسو، تاو تي تشينغ، تحقيق: فراس السواح ، ص91.**
[4] **- المصدر نفسه، ص115.**
[5] **- عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ الأخلاق، ص253.**
[6] **- لاو تسو، تاو تي تشينغ، تحقيق: فراس السواح، ص73.**

الفضيلة لا يفعل، ومع ذلك لا يترك شيئاً بحاجة إلى تمام، البعيد عن الفضيلة يفعل، ومع ذلك يترك أموراً بحاجة إلى تمام. رجل الخير يفعل ولكن دون دوافع خفية، رجل الاستقامة يفعل ولكن بدوافع خفية، رجل الشريعة يعمل وعندما لا يلقى استجابة، يشمّر عن أكمامه ويعمد إلى الإقناع بالقوة."[1]

فظهور فلاسفة الأخلاق، ثم ظهور الشرائع والأديان، يعد مؤشر على أن تأزم الحياة الإنسانية، وصل إلى درجة تستدعي هذا الظهور، الذي يعني التدخل المباشر، بل والقسري، للتخفيف من صخب الحياة وضجيجها، بأساليب لا تروق للتاوي، لكنها تليق بالحالة التي وصل لها الإنسان. وهي أساليب وإن كانت تبدو لجلب الطمأنينة، لكنها في الحقيقة خلاف ذلك، وهذا ما أكده " تشوانغ تسو" المعلم الثاني للتاوية بقوله: " **أولئك الذين يبحثون عن طمأنينة القلوب، بواسطة ضجيج الموسيقى، وهرج ومرج الطقوس، ويبشّرون بالإحسان والصدقات وحسن المعاملة، يسيئون للطبيعة الأصلية للأشياء"**[2].

من هنا ندرك بأن الموقف التاوي موقف أخلاقي راقي، بل على مستوى عالي أو متعالي من السمو، ولذا جاء بحثنا هنا، لإثبات أن الأخلاق التاوية، تعتبر سابقة لكل التعاليم الأخلاقية، بل سابقة للأخلاق بمعنى أنها أخلاق عفوية وغير مصطنعة، إنها أخلاق طبيعية؛ أي غير صناعية. عفوية؛ أي غير مقصودة. غريزية؛ أي قبليَّة، أي ليست ناتجة عن تعاليم وفلسفات أو تشريعات فلسفية أو قانونية أو دينية.

ومع كل هذا فالتاوية لا تدعو إلى الزهد حتى الموت، كما هو شأن الجينية الهندية، أي لا تدعوا إلى قمع الرغبات أو قطعها، ولا حتى إلى تجاهلها كما هو شأن البوذية، بل هي مع المبدأ الذي عبر عنه الإسلام في المقولة القرآنية: /**لا تنسى نصيبك من الدنيا**/ سورة القصص **77**/ لكن دون مبالغة أو إسراف. ولعل الشعار الذي رفعته الرواقية: لنعيش على وفاق مع الطبيعة. يعبِّر خير تعبير عن الموقف التاوي. والتعايش مع الطبيعة، لا يعني أن ننغمس في ملذاتنا، ولا أن نتجاهل هذه الملذات؛ لأن الطبيعة عاقلة وحكيمة، والانغماس بالملذات الطبيعة للإنسان ينافي الحكمة، التي طالما نادت بها التاوية.

إن العيش على وفاق مع الطبيعة، يعني أن نبتعد عما هو غير طبيعي، وطالما أن قانون الطبيعة، عادل وحكيم وفاضل، فإن تصرفنا وفق الطبيعة، يعني أن نبلغ أقصى درجات الفضيلة، ونصبح بذلك ذا فضيلة كاملة، تماماً كما هو التاو.

النتائج والمناقشة:

وهكذا فقد برزت التاوية، كإحدى الفلسفات ذات الأثر العميق في تاريخ الفلسفة عموماً، وفي الحضارة الصينية قديماً وحديثاً على نحو خاص. ولم تبرز التاوية كديانة في بادئ أمرها، وإنما برزت كفلسفة مادية طبيعية، افترضت وجود مبدأ مادي أو طبيعي، لكنه ليس كأي مادة أو طبيعة، إنما هو بمثابة مطلق للوجود، لكنه مطلق غير مفارق وغير غريب عن الوجود. ونحن بالطبع نتحدث عن التاو الذي هو بمثابة إله متحد بالوجود، أو هو والوجود أو العالم شيء واحد؛ لأن كل ما يوجد فعنه يوجد.

[1] **ـ المصدر نفسه، ص 73.**

[2] **ـ المصدر نفسه، ص147.**

هذا التاو الذي هو مبدأ كل شيء، هو عبارة عن تدفق في الوجود، تدفق وعفوية، إنه روح سارية، لكنها ليست روح عمياء، بل هي روح عاقلة، وعقلانيتها ليست عقلانية مصطنعة، إنها عقلانية طبيعية، وعفوية تماماً كما هو لوغوس الرواقية الذي هو عبارة عن روح الوجود ومبدأه العاقل.

وهذه العفوية والتلقائية هي وسيلة التاو لتدبير الكل، ولذا فهو يفيض على العالم بهذه التلقائية أو ما يسمى باللافعل، إن لم نقل أنه يفيض العالم كله بفعل اللافعل ذاته. وبالتالي يصبح العالم بفعل هذه التلقائية تاوي الماهية؛ نعم إن التاو يرسم للعالم طريقاً، هو طريق التاو نفسه، وهو طريق الطبيعة والسماء، وهذا الطريق يتجلى من خلال هذه العفوية أو التلقائية أو اللافعل.

وقد عاش الناس في المرحلة التي كانوا فيها قريبي عهد بالتاو، حياة بساطة وعفوية، لأنهم كانوا يقتدون بنور التاو، فكانوا يعيشون بمحبة وسلام، لا يحتاجون لتعاليم أخلاقية ولا دينية، ولم يكونوا بحاجة لدولة ولمؤسسات تدبر أمورهم؛ لأن أنوار التاو وحدها، كانت تكفي لتحقيق الاستنارة الكاملة بحياتهم. وما أن تخلى الناس عن بساطتهم الأولى، وتسربت لحياتهم الأنانية والغش، حتى أطفئ نور التاو بداخلهم.

وعندما أطفئ نور التاو، أضاع الناس طريقهم وسراطهم المستقيم، فصاروا بحاجة لأخلاق وتعاليم وقواعد سلوك. فظهور التعاليم الأخلاقية، كان ايذاناً بمرحلة جديدة، وهي مرحلة سقوط الإنسان واغترابه أخلاقياً، ولهذا كانت دعوة لاو تسو، تتجلى في العودة إلى ما قبل الأخلاق، أي إلى المرحلة التي سبقت ظهور الأخلاق، حينما كان الناس يعيشون على طبيعتهم، بلا تصنع وبلا غرور وبلا طمع.

ونحن إذ نسجل اعجابنا بهذه الدعوة وهذه الفلسفة، فنحن لا نفهم منها العودة إلى الحياة الأولى، حياة البساطة والدروشة، حيث لم يكن الإنسان يجد ساعتها ما يأكل، وكان ربما أشبه بالحيوانات، لا هم له إلا الأكل والشرب والجنس والنوم.

بل إن هذه الدعوة الآن تمثل بالنسبة لنا، فلترة لحياتنا ومفاهيمنا من شوائب الحياة المادية الثقيلة والثقيلة جداً على النفس. تلك الحياة التي جعلت وتجعل من الإنسان أشبه ما يكون بوحش غابة، ولديه كل الوسائل التي تمكنه من الفتك بالآخرين، وسلبهم كل حقوقهم ووجودهم بأحدث الأساليب وأكثرها تطوراً.

هذه الدعوة تمثل حاجة للالتفات لحقيقتنا الإنسانية النبيلة، لإنسان البدايات. وبالتالي لعل هذا يكون دافعاً لنا لكي نهذب حياتنا، ونضفي عليها شيئاً من الصدق والعفوية .

لا نريد أن نكون تاويين ولا إلهيين، لكن على الأقل ألا نكون كالوحوش الكاسرة، فلا نقوم بواجباتنا إلا لأنها واجبات، وعيب علينا أو حرام ألا نقوم بها، ونحن حسب الفلسفة التاوية لا نقوم بالفعل لأنه واجب، بل لأنه من طبيعتنا أن نقوم به، دون أن يكون هناك حاجة لدعوة من حكيم أو نبي.

ونحن عادة عندما نقوم بتقديم خدمة لأحدهم، ولا يقوم هذا بشكرنا أو برد الجميل، فإننا نقيم الدنيا ولا نقعدها اعتراضاً عليه. وهذا من طبع الناس الواقعين. وفي أحسن الأحوال حينما نكون مثاليين: ويقوم أحدهم بشكرنا، فإننا نجيبه بعبارة: لا شكر على واجب. أي إنني أنا قمت بواجبي الذي أملته عليَّ الجماعة أو التعاليم الأخلاقية أو الدينية.

أما في التاوية فإن الإنسان يقوم بما عليه القيام به، دون علم منه أنه يقوم بواجب أو ضرورة اجتماعية أو أخلاقية. إنه يتصرف بدون أي توجيه من أحد، يتصرف بطبيعته فيأتي تصرفه على نحو مطابق للفضلة، إنه لا يشعر بأنه قام بفعل يستحق عليه الشكر. فإذا قال له أحدهم شكراً أجابه بدهشة: لا شكر، أو لماذا تشكرني، أو لم أفعل شيئاً أستحق عليه الشكر. وهذه أفضل عبارة تعبّر عن القيم التاوية. حسب فهمنا لها. فلم أفعل شيئاً تعني: أنه تصرف على نحو طبيعي،

ولا ينبغي أن ينال شكراً ، إذا ما تصرف على نحو طبيعي وعفوي، لأن هذا الموقف من الطبيعي أن يتصرف به. ولو أننا جميعاً تصرفنا بعفوية على نحو يتوافق مع الفضيلة، لأصبحت الحياة كلها فاضلة، فلا يتميَّز أحدنا عن الآخر فيستحق شكراً.

ونحن اليوم للأسف، إذا قام أحدنا بواجباته، أو بالحدود الدنيا من واجباته، فإننا نعتبره فاضلاً، ونرفع له أسمى آيات الشكر والامتنان. بل ننظر للأسف بإيجابية للإنسان السلبي، الذي لا يقوم بأي واجب له، فنقول: يكفي أنه لم يرتكب جريمة أو خطأ ما، وكأن الأمر الطبيعي في أيامنا هذه، أن يرتكب الناس الحماقات والشرور.

لا نريد أن نسهب كثيراً في تلخيص وتقييم الموقف التاوي، ونكتفي أخيراً بتقديم أهم النتائج التي توصلنا إليها:

1. تفردت الفلسفة التاوية بالدعوة إلى أخلاق متعالية، أو ما قبل الأخلاق، خلافاً لكل الفلسفات الأخلاقية الأخرى.
2. تمثل الأخلاق المتعالية التي دعت إليها التاوية، أخلاق مثالية من الطراز الرفيع، بل لعها أكثر الفلسفات مثالية على صعيد الأخلاق، في حين عُرف عن التاوية أنها فلسفة مادية.
3. تتفق التاوية مع الكثير من الفلسفات والأديان وربما أثرت بالرواقية واسبينوزا وروسو وتتوافق مع الفلسفة البوذية والديانة الإسلامية بأكثر من نقطة.

الاستنتاجات والتوصيات:

قدمنا فيما سبق مجموعة من النتائج ونقدم هنا بعض التوصيات:

1. تحتاج التاوية لدراسات أكثر لتعريفها وتقريبها أكثر من الأوساط الثقافية العربية والإسلامية.
2. يمكن القيام بدراسة مقارنة، بين التاوية والديانات السماوية، وبالذات الإسلام، لما بينهما من تقارب على الصعيد الأخلاقي.
3. أيضاً يمكن اقامة مقارنات بين التاوية وبين فلسفة التغير والصيرورة عند هيرقليطس، وبين الرواقية وغيرها من الفلاسفة، مثل اسبينوزا وروسو .
4. يمكن إقامة مقاربات بين التاوية وبين منجزات العلوم الحديثة. لاسيما أن التاوية تهتم بطريقة خاصة بالعيش، تساعد على اطالة عمر الإنسان، أو على الأقل على العيش بدون أمراض.

المصادر والمراجع

المصادر:

1. لاو تسه ، تشوانغ تسه، التاو، ترجمة: هادي العلوي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط1، 1995.

2. لاو تسو، التاو تي تشينغ (انجيل الحكمة التاوية في الصين)، ترجمة: فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، 1998.

المراجع:

3. أحمد أمين، كتاب الأخلاق، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931.

4. توفيق الطويل، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1953، ص 44 وما بعدها.

5. جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة علم المعرفة، الكويت،العدد،199، 1995.

6. عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ الأخلاق، الناشر: جروس برس، طرابلس، ط1، 1988.

7. عمر عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999.

8. فادي الأطرش، نشأة الفكر في الحضارة الشرقية القديمة، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق . فرع بنها. 2004. ص117.

9. فراس السواح، دين الإنسان، منشورات علاء الدين، دمشق، بدون تاريخ.

10 . كريل (هـ . ج) ، الفكر الصيني من كنفوشيوس إلى ماوتسو. تونغ، ترجمة: عبد الحميد سليم، بدون تاريخ.

11. مصطفى عبده، فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997.

12. ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: عبد المنعم مجاهد. دار النشر للتوزيع، القاهرة، 1984.

13. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود ومحمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج4.

14. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، طبعة جديدة.